

التصوف وطرقه بالجزائر وتأثيراته على دول الساحل

Sufism and its paths in Algeria and its influence on the Sahel countries

ط.د. ابراهيم براهيمي¹، بوسماحة الطيب²

¹المدرسة العليا للأساتذة ببشار (الجزائر)، مخبر رعاية الابتكار والمؤسسة الناشئة لخريجي التعليم العالي في اتجاهات

التنمية المستدامة والتعامل مع الظروف الطارئة، brahimi.ibrahim@ensbechar.dz

²المدرسة العليا للأساتذة ببشار (الجزائر)، bousmaha.tayeb@ensbechar.dz

تاريخ النشر: 2025/12/27

تاريخ القبول: 2025/12/04

تاريخ الاستلام: 2025/02/13

ملخص: الطرق الصوفية الجزائرية مدارس روحية، تتولى إعداد النفوس وترميم القيم، ولقد حاولنا في هذا المقال إبراز مظاهر حضور هذه الطرق في الجزائر، ثم تبين البعد العلائقي والروحي لها مع بلدان الساحل الإفريقي، لإقامة صرح حضاري يرسخ الصلات الروحية والثقافية والسياسية والاجتماعية بينهما، مع بيان أكثر الطرق مساهمة في رسم ونسج هذه العلاقات.

كلمات مفتاحية: الطرق. الصوفية. الحضور. البعد. الساحل.

Abstract: Algerian Sufi methods are spiritual schools that elaborate souls and restore values. In this article, we tried to demonstrate the presence of these methods in the Algerian society, and then highlighting their relational and Spiritual dimension with the African Sahel countries, in order to create a cultural edifice that establishes the spiritual, cultural, political and social relationships between them, also to show the most contributing methods in which these relationships are developed.

Keywords: Roads; Sufism; the audience; The dimension; the coast.

1. مقدمة:

الصوفية والتصوف والصوفي مصطلحات تتردد على ألسنة الناس، علماء كانوا أو دعاة أو مفكرين أو عوامًا، فقد فرضت وجودها في جذور الأمة الإسلامية منذ القرون الأولى إلى يوم الناس هذا، والجزائر جزء من الأرض الإسلامية، لها تاريخ قديم مع التصوف، احتلت في منظومته حيزا مهما ومجالا واسعا في المغرب العربي، حتى عرفت به وعرف بها، وصارت جسرا ممتدا إلى دول الساحل الإفريقي، لذلك يسعى البحث إلى الكشف عن مظاهر حضور تصوف الطرق الصوفية بالجزائر، وتأثيراتها على دول الساحل، مجيبا عن إشكالية تطرح في ضوء هذا التقديم وهي: ما مظاهر هذا النفوذ الروحي؟ وما أبرز أبعاده؟ وما تأثيراته على دول الساحل الإفريقي؟

2. مفاهيم:

1.2 البعد:

البعد: مفردة "بُعْد" وهي اسم والجمع أبعاد، بمعنى مسافة، و البعد اتساع المدى، يقول ابن منظور: "البعد خلاف القرب وقد بُعِد بالضم بُعِدا فهو بعيد" (ابن منظور، 2016، صفحة 309).

وفي تفسير القرطبي لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة، صفحة 194) قال الجوهرى "بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ": "السفر البعيد" (القرطبي، 2006، صفحة 226)

والبعد في القرآن يعني اتساع المدى الذي يحويه القرآن الكريم في تعاليمه وأحكامه وتشريعاته الشاملة والصالحة لكل زمان ومكان، وعلى مختلف المستويات والأبعاد العقائدية والإنسانية والأخلاقية والاجتماعية، وعلى المستوى النظري والعملي ما جاء صدعا وما جاء فهما ما يدخل ضمن غيره على وجه الإجمال.

والبعد الذي نود الإشارة إليه في مقالى هذا هو الدور العلائقي الذي يجمع أكثر من دولة للسعي للحفاظ على الهوية والثوابت المشتركة وتطوير التعاون المادي واللامادي في شتى المجالات.

2.2 مفهوم الطرق الصوفية:

الطرق جمع طريق و طريقة جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الجن، صفحة 573)، قال ابن جرير الطبري: "استقاموا على الطريقة" عن مجاهد قال: الإسلام. وعن سعيد بن جبير قال: الدين" (الطبري، 2001، صفحة 476). وأما لغة وأشعار العرب ودواوينهم فالطريقة تطلق على السيرة، والمذهب، والحال ويعرفها الصوفية بأنها: "السيرة المختصة بالسالكين إلى الله - تعالى - من قطع المنازل والترقي في المقامات".

أما الصوفية من التصوف والأصل الذي اشتقت منه كلمة التصوف أو صوفي، لم يعرف له مصدر محدد من قبل أكثر الباحثين، فمنهم من جعلها مشتقة من الصفاء، ومنهم من نسبها إلى أهل الصفة، ومنهم من نسبها إلى رجل يقال له صوفة، ومنهم من نسبها إلى الصوف. أما الطريقة الصوفية فيقصد بها المنهج الروحي والطريق السلوكي التربوي الذي يتوصل به إلى معرفة الله تعالى وإلى الترقى إلى مقام الإحسان، وعرفها الإمام الجرجاني بقوله: "الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين من قطع المنازل والترقي في المقامات". (الجرجاني، 2004، صفحة 119)

أما حاجي خليفة فقال: "علم الطريقة ما يتعلق بإصلاح الباطن بمنزلة العلم بالمنازل وعقبات الطريق". (حاجي، 2006، صفحة 413)

3. الحضور الصوفي للطرق الصوفية بالجزائر:

التصوف في الجزائر شأنه شأن التصوف في الإسلام عموما، احتضنه المجتمع وصار منهجا للعبادة والسلوك، فكان له تأثير واضح وجلي على الجزائريين في قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم ومواقفهم ومشاكلهم، ومع بداية القرن السادس عشر الميلادي ظهرت الطرق،

وزاد أتباعها، والمتتبع لها يلاحظ بلا شك دورها البارز في التأثير على حياة المجتمع الجزائري، من خلال حضورها الفعلي في الحياة اليومية، وعدم إغفالها لمهامها الأساسية المتمثلة في مجالات كثيرة منها:

1.3 الحضور التربوي:

إن الهدف المنشود للطرق الصوفية بالجزائر هو صناعة الفقيه الزاهد، المشمر العابد، الذي كان ينبذ الدنيا وزينتها نبذاً، ويحرص على كبح جماح الشهوة النفسية، ولا يتأتى هذا الهدف إلا بالتربية الروحية والسلوك النقي، إذ الإحسان روح الإسلام وجوهره، فهو يعنى بتصفية القلب وتطهيره من رجاساته عن غير الله - تعالى - وتحرير الجسد من العبودية المقيتة للآدميين وغيرهم من دون الله - تعالى -، ونبذ الدنيا، وهجر لذائذها، وقد كان الأمير عبد القادر - رحمه الله - يشبه المربي الروحي بالطبيب الماهر، ويشبه التلميذ والمريد بالمريض الذي يجب عليه طاعته وامتثال أمره حتى يتم شفاؤه. ولقد كان للطرق الصوفية بالجزائر هذا الحضور التربوي الذي مهمته تربية الأجيال على تزكية الأرواح والنفوس، وغسلها من الرذائل، وتحليلتها بالفضائل، أي بناء الصوفي الصادق القرآني الأخلاق والسلوك، المحمدي السيرة والشمائل، الذي يكون مضرب مثل وقدوة حسنة في الصدق والحياء والعفة والأمانة والوفاء والحب والبغض، والتصوف كان حضوره التربوي في نشر ثقافة الزهد الصحيح الذي يربي النفوس ويهذبها، ويحد من شراستها وطمعها، زهد يعلم المؤمن مراقبة نفسه ومحاسبتها والعمل على تزكيتها وتطهيرها واستكمال فضائلها. والحضور التربوي عند رواد الطرق الصوفية يحتل المقام الأول، فهو عندهم اقتداء بالمعلم الأول عليه الصلاة والسلام، إذ يقول الله تعالى في حقه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، صفحة 420)، فقد كان صل الله عليه وسلم على جانب عظيم من التربية الحقّة، والخلق القويم بشهادة من رب العالمين له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم، صفحة 564)، وبشهادة منه صل الله عليه وسلم عن ذاته إذ يقول: "أدبني ربي فأحسن تأديبي". (السيوطي، 2004، صفحة 371) فالناس منذ أن خلقهم الله إلى يوم القيامة في حاجة ماسة

إلى من يرشدهم إلى الطريق المستقيم ويدلهم على الصراط السوي، لذلك يعتبر الدخول مع الصوفية بقصد التربية الروحية والتزكية فرض عين قياسا على قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ويستدل بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء، صفحة 371)، فما دامت النجاة يوم القيامة مرهونة بسلامة القلب من المحظورات صارت تزكياته من أمراضه فرض عين.

2.3 الحضور التعليمي:

لقد استطاعت الصوفية وطرقها أن تغلق الباب في وجه المبشرين الذين يترصدون ويتحينون الفرص للوصول إلى أغراضهم باسم التعليم والتطبيب والإحسان بنشر الزوايا للتعليم وإنقاذ الشعب الجزائري من الأمية المقيتة، والتجهيل المفروض من قبل السلطة الاستعمارية، بجعل التعليم مجانيا لكل الناس صغارا وكبارا، فقراء وأغنياء، فالزوايا آنذاك بمثابة المؤسسات الوحيدة التي تتولى تعليم الناس، فاستطاعت أن تفعل حضورها التعليمي في المحافظة على توريث القرآن الكريم تلقينا وحفظا، ونقل التراث الإسلامي الفقهي واللغوي والثقافي نقلا صحيحا، بأسلوب بسيط وسهل ولغة عربية، ذات منهج روحي غني في محتواه، وسليم في جوهره، وكذا كانت المدارس والكتاتيب الحرة والمساجد، وكانت الزوايا حصونا وقلاعاً للدراسة والدفاع عن القيم ومقومات الهوية، بالرغم من همجية ووحشية المستدمر الفرنسي، ومن الأدلة الشاهدة على ذلك إحراق وإتلاف مكتبة الأمير عبد القادر -رحمه الله-، وهو ابن زاوية.

ومؤسسو هذه الزوايا والمعلمون فيها والمشايخ أصحاب رسالة وذوو وزن عند الله تعالى، وعند الناس، لأنهم صانعو أجيال وبناءً مجد، لأن لهم دورا في التعليم العربي الإسلامي في هذا البلد، تعليما يخدم العقيدة الإسلامية والقيم والأخلاق ويحافظ على الشخصية الجزائرية الإسلامية، تلك الشخصية التي ظهرت قوتها وقدرتها على المقاومة والتّحدي في عهد الاحتلال البغيض، ومن النماذج: زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي مثلا، والتي كوّن فيها العقيد عميروش لجنة الأوقاف. ولاتزال الزوايا قائمة على تعليم القرآن، وتزويد المعاهد في إعداد

الأئمة والمعلمين، والمحافظة على المرجعية الوطنية في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك، مع ما نراه اليوم من الانفتاح والعولمة وكثرة الطوائف الوافدة على الجزائر وغيرها، يقول محمد نسيب: "أن طالب الزاوية كان يتمسك بدينه، ويتعلق بشخصيته، ويعتز بثقافته العربية الإسلامية، في الوقت الذي كان الناس فيها يتهافتون فيه على اللغة الفرنسية لغة الخبز المغموس في دماء الضحايا المذبوحين" (نسيب، 1989، الصفحات 41-42). ومنها أيضا زاوية أبي زكريا الزواوي أسسها الشيخ الفقيه الولي الصالح أبو زكريا يحيى بن أبي علي المشتهر بالزواوي (ت 611هـ)، خارج مدينة بجاية، والذي جلس بها لنشر العلم والدعوة إلى الله، وتدريس علوم الحديث وعلوم الفقه والتصوف، فانتفع خلق كثير على يديه، كما تولى التدريس بها الشيخ الولي الصالح أبي مدين الغوث.

3.3 الحضور الاجتماعي:

الحضور الاجتماعي تمثل في أمرين هما: تعميق روح الانتماء والأخوة الإسلامية، والسعي إلى إصلاح ذات البين لتثبيت الأمن الداخلي، لقد استطاعت الطرق الصوفية أن تعمق روح الانتماء والأخوة الإسلامية، حيث أثمرت وعيا اجتماعيا وغرست توجهها ثقافيا ورسخت قناعات سياسية منطلقها الإسلام، وهدفها المحافظة على قيمه، فقد أعطى رجال التصوف اهتماما بالغاً بمبدأ الإخاء ونصحوا بضرورة الاجتماع والأخوة بين المريدين وعامة الناس، وامتلأت بطون كتبهم عن واجبات الأخوة وأدائها في الحضر والسفر والعهد والمعاملة.

إن تمتمين روابط المجتمع كان يستدعي أولا تنزيل الفكر الصوفي إلى الأرض، ليعايش مشاكل الناس ويقرأ مشاعرهم، ويقر العدالة عن طريق التوسط. فهو حضور فعال يرتب العلاقة القوية بين الدولة والقبائل، وبين الأفراد أنفسهم، فكم حقنت دماء بفضل الإصلاح، وكم تم لم شمل أسر كانت عرضة للتشتت والضياع، فقد قامت الطرق الصوفية في الجزائر بدور الوسيط لفك النزاع، وللدفاع عن المستضعفين والمضطهدين، ودرء الصدد وتعزيز الترابط لتحقيق التقارب، والتفاعل الاجتماعيين، ولتقليل التناحر والتباغض المفضي إلى إشعال فتيل الحرب، يقول حمدان خوجة في كتابه المرأة: "إن وجود هؤلاء المرابطين في

المجتمع الريفي نعمة، إذ بمجرد ما لهم من نفوذ على هذه الشعوب يسكتون أسلحة الخصوم، ويمنعون إراقة الدماء، وإن سلطانهم على نفوس القبائل الجاهلة المحدود النظر لعجيب" (خوجة، 2006، صفحة 19)، ومن رسائل الشيخ المختار الكبير شيخ الطريق القادرية بالزاوية الكنتية البكاية هذه الرسالة: "اعلموا أيها الإخوان في الله أنه لا يوجد بعد الله أثق به في الحوادث غيركم، فجدوا في رد هذه الفتنة قبل استحكامها، واجتهدوا في إطفاء هذه الجمرة قبل اضطرامها، فإن دفعكم إياها أحمد لنارها وادفع لانتشارها" (شيخى، 2009، صفحة 185)، ويروى عن الشيخ الورثاني أنه كان يتدخل بين الناس لإصلاح ذات البين، ويسعى إلى إحداث المصالحة في القرى التي حل بها الاضطراب.

وتتلخص مظاهر التكافل الاجتماعي في الآتي:

- الإيواء والإطعام: الحرص على تنشئة المجتمع على قيم التضامن وسلوك التكافل، ومحاربة البخل، يذكر عن العياشي أنه قال في رحلته واصفا زاوية الشيخ أحمد بن موسى بضواحي الساور: "أنه يحسن لأهل الأسفار"، وكذلك وصف واحات توات وزواياها. (بلحميسي، 1979، صفحة 68)
- العلاج: وهو خدمة تقدم لمداواة المرضى والتخفيف من آلامهم وأوجاعهم.
- تثبيت الأمن الداخلي: وتتمثل في حماية القوافل والمسالك التجارية وركب الحجيج.
- إحياء المواسم الدينية: وهي فرص نادرة يتوفر فيها الرخاء، وعادة ما تكون مرتبطة بالحياة الزراعية، ولأجل إقامة الأسواق التجارية.

4.3 الحضور السياسي:

كان للطرق الصوفية حضورها السياسي الفعال قديما وحديثا، قبل الحقبة الاستعمارية وأثناءها وبعدها، إذ تبنى هؤلاء مهمة الدفاع عن الأراضي الإسلامية مع ثلة من المرابطين، ومن الحضور السياسي ما قدمه رجال التصوف من خدمات جليلة للأتراك، ومساعدتهم في تعميق نفوذهم بالجزائر، وغلى النقيض من استطاعت أن تهز أركان الحكم

العثماني بالجزائر في آخر عهده، وكان ذلك بفعل الانتفاضات الشعبية، ومن أبرزها ثورات رجال الزوايا والطرق الصوفية، ومنها ثورة الطريقة الدرقاوية والتيجانية وإلى حد الساعة في زمان الناس هذا لا يزال رجال الزوايا والشيخ يمثلون بحضورهم السياسي النسيج الذي يربط بين السلطة الرسمية والمجتمع، ولا مفر للناس منهم إذا حصل النزاع، ولا يزال رجال السلطة يتواصلون مع المتصوفة من خلال الرسائل المتبادلة، ومنها رسالة يوسف باشا المعظم يرد على رسالة الشيخ محمد الساسي والتي: "حثة فيها على أن لا ينسى الحاكم رعيته، وأن يعرف حق العلماء والمشايخ، وذكره بالدعاء لعموم الأمة المحمدية بالخير، وعرفه بحق السلطان، وأن طاعته من طاعة الرسول وطاعة الرحمان" (بن سالم، 2017، صفحة 82)، وفي سنة 2009 ذهب الخليفة العام للطريقة التجانية من مدينة الأغواط إلى العاصمة الجزائر، ليعلن في ندوة صحفية عن دعمه ومساندته لعهدة رئاسية ثالثة للرئيس بوتفليقة، فحافظت الأغواط على مكانتها الخاصة وحظيت بتمويل كبير، والتاريخ الجزائري الحديث فيه نماذج كثيرة مرت فيه العلاقة بين الزوايا والأنظمة بمراحل متنوعة تراوحت من أقصى حالات العداء إلى أقصى حالات الود، وقد سعت السلطة الحاكمة جاهدة في التقرب وتقريب المرابطين ورجال التصوف منها، ومنحهم الثقة المطلقة، بل شرعت لهم قوانين تخصهم وتخدمهم. ومع هذا كله لم يسلم رجال التصوف والطرق الصوفية من حدوث الاختلاف، وسوء التفاهم مع الطبقة الحاكمة، لكنهم لم يكونوا يصطدموا معهم، بل كان لهم نهج معتمد في التعامل معهم وهو الابتعاد عن الحكم.

4. الطرق الصوفية في دول الساحل:

ارتبطت الجزائر بعلاقات تاريخية مع دول الساحل، وبالأخص الغرب منه، وامتد التواصل الحضاري بينهما خاصة في المجالين التجاري والثقافي، وقد أسهم الكثير من العلماء والدعاة والمصلحين والمتصوفة الجزائريين في تمتين هذه الصلات في إطار رحلة القوافل التجارية أو ركب الحجيج.

ومما راهنت عليه الجزائر ومنطقة غرب إفريقيا تفعيل هذا التواصل، رغم المعوقات التي تواجههما، فقد استغلا عامل الدين والمذهب الفقهي والرابط الاجتماعي لخلق آثار حضارية ذات أبعاد إقليمية أهمها تثبيت وترسيخ الفكر الديني والتراث المادي.

1.4 الجذور التاريخية للعلاقات بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي:

قبل وصول الإسلام إلى بلاد المغرب الأوسط (الجزائر)، عرفت الجزائر مجتمعا منفتحا على المجموعات الإفريقية التي استقرت بالجزائر، وانصهرت بين ساكنة المدن والأرياف، إما ولاء أو انتماء كاملا، ومع دخول الإسلام زادت العلاقة، بل انتقلت نقلة عظيمة بفعل الدعاة والتجار الذين روجوا لكثير من مظاهر الإسلام كالتصوف مثلا، فتبادلوا العلوم والمعارف وأوراد الطرق الصوفية، هذه الأخيرة عرفت طريقها إلى غرب إفريقيا بفضل عوامل كثيرة منها: "ما بذله المرابطون وقوافل التجار التي جابت الصحاري، من دعوة مخلصنة لنشر الإسلام نشرا صحيحا، علما وتعلما، كان الفضل فيه بعد الله تعالى لشيخو الطرق الصوفية منذ القرن 15م، واستمر ذلك إلى غاية القرن 20م، ومن الشيخو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، ثم عرفت الطرق الصوفية في بلاد الساحل نشاطا كبيرا، حيث تم إنشاء الزوايا والمراكز العلمية للدعوة الإسلامية، فظهر الفقهاء والمريدون من السينغال حتى النيجر" (بوتدرة، 2022، صفحة 332). ومما زاد هذا البعد الإقليمي انتشارا إقليم توات الذي يعتبر منطقة مجاورة جغرافيا لدول الساحل، ولاشتراكهما في العديد من الخصائص.

2.4 مظاهر العلاقات الروحية للطرق الصوفية في دول الساحل:

من أعظم المظاهر هي إحداث تغييرات جذرية داخل المجتمع الإفريقي من جميع النواحي الدينية، والثقافية، والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

أما دينيا فقد أسهمت بشكل فعال في نشر الدين الإسلامي بغرب إفريقيا، من خلال القضاء على الكثير من البدع والخرافات، ومن الشواهد على صدق هذا الزعم ما قام به الشيخ عثمان بن فودي والشيخ عمر بن سعيد الفوني والحاج عمر الغوثي التيجاني في تقوية وحدة المسلمين، وتصحيح العقيدة وبناء المراكز والمساجد والمعاهد الدينية، وتعليم العلوم

الشرعية وتبسيطها، ومن النماذج: "ما قام به الحاج عمر الفتوي في النيجر سنة 1858م و البمبارا في سيغو في القضاء على الوثنية ومظاهرها ونشر العقيدة الإسلامية." (بوتدارة، 2022، صفحة 339)

ومن الناحية الثقافية فقد استطاعت الطرق الصوفية نشر الثقافة الإسلامية، وتعليم الناس اللغة العربية وكيفية كتابتها ونطقها، كل ذلك بفضل المدارس القرآنية، حتى أصبحت اللغة العربية في بعض المناطق الإفريقية هي لغة التخاطب كما هو الحال في التشاد والسودان. أما اجتماعيا فكان لهذه الطرق قدم السبق في القضاء على التعصب، والنظام القبلي التقليدي، والسعي وراء توحيد القبائل وتقوية الألفة بينهم، كل ذلك بفضل التعاليم الإسلامية الواضحة، بعيدا عن اللون والجنس وغيرهما، واستطاعت استئصال عادات وتقاليد وثنية كثيرة كتقديم القرابين البشرية، ووأد الأطفال، وكان شيوخ الطريقة السند الرئيسي للضعفاء والمضطهدين والفقراء والعجزة والمحتاجين في إيوائهم وحل النزاعات داخل القبائل. وأما سياسيا فواجهت الطرق الصوفية الاستعمار وتصدت له، لأنه جاء لنشر الثقافة المسيحية ومحو قيم الإسلام، فخاضوا ضده معارك عديدة أنقذوا المنطقة من خطر القضاء على الإسلام وانكماشه.

3.4 أشهر الطرق الصوفية المساهمة في ترسيخ العلاقات الروحية بين الجزائر ودول الساحل:

من الطرق الصوفية التي انتشرت بغرب إفريقيا نذكر: القادرية والتيجانية والسنوسية، وهي الطرق الرئيسة بالمنطقة، والتي كان لها نشاط واسع.

أ- القادرية:

يعود الفضل في انتشارها بغرب إفريقيا إلى قبيلة كنتة، التي استقرت في توات خلال القرن 15م، وانقسمت إلى أسر وبطون عديدة منها ثلاث أسر رئيسية تمتد في المنطقة الواسعة من توات إلى منحى نهر النيجر ووادي نهر السينغال، حيث تتمركز أسرة الهمال المعروفة بأولاد سيدي الحاج أبو بكر بتوات وأنجاسان بالسينغال. "ويجمع المؤرخون على أن

سيدي المختار الكنتي الكبير كان له الفضل في إرساء قواعد القادرية وبناء صرحها وإعطائها الطابع الإفريقي، حيث كان يتمتع بصفات حميدة، وثقافة عالية، بها أصبح قطبا للطريقة بالمنطقة، واعترف له جميع القادرين في الصحراء بالمشيخة، حيث أسس مدارس عديدة لنشر الإسلام والطريقة القادرية في منحى نهر النيجر وموريتانيا" (الوزاني ، 1998، صفحة 67).

اشتهرت الأذكار والأوراد القادرية على ألسنة المريدين وبين ذلك شيخهم بأن مصدرها مبني على الكتاب والسنة، فليست فيه لفظة إلا وهي مسندة إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صل الله عليه وسلم، وكان الأفارقة يقيمون الأوراد في كتمان وسرية وعزلة تامة، ومما عرف عن الطريقة القادرية هو ميلها إلى التسامح والانفتاح ونبذ التعقيد والانغلاق.

وامتدت هذه العلاقات الروحية حتى أسس الكنتيون زوايا قادرية بغرب إفريقيا منها:

زاوية أنجاسان: (السينغال) الذي بها ضريح الشيخ بوكنت ت (1914م).

زاوية بوتليميت: (موريتانيا) أسسها الشيخ سيدي الكبير (1780/1869م).

وللطريقة القادرية الفضل الكبير والحظ الوافر في نشر الإسلام الصحيح بغرب إفريقيا خلال القرن 19 و20م.

ب- التيجانية:

وتعدّ الطريقة التيجانية المنسوبة إلى أبي العباس أحمد التجاني (1737.1815م) أكبر

طريقة صوفية تنطلق من الجزائر حيث تمثل منطقة الأغواط (عين ماضي إلى بقاع الدنيا، وعدد مريديها يزيدون على 250 مليوناً، من أهدافها: تزكية النفس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإكساب المعدوم، والرفق بالضعيف، ونشر الإسلام، وترسيخ قيمه، والإصلاح بين الناس، وإطعام الطعام، ارتبط نشاطها بغرب إفريقيا بحركة الحاج عمر الفتوي التكروري (1795/1865م)، هذا الأخير زار العديد من البلدان الإسلامية المشرقية منها والمغربية، و حاول نشر مبادئ الطريقة القائمة على محاربة الوثنية، والوقوف في وجه المتعاونين مع الاستعمار، والسعي إلى توحيد البلاد الإفريقية تحت ظل الإسلام، يذكر المؤرخون له رحلات

كثيرة منها: "مدن كنجانا بالنيجر وكنكان وكومبيا والتشاد واستقبل استقبالاً عظيماً من قبل السلطان الكانمي، والسلطان محمد بلو بن عثمان دان فوديو وغيرها من مناطق بلاد الساحل الأفريقي" (الوزاني، 1998، الصفحات 338-339)

ت- السنوسية:

تأسست على يد الشيخ المجاهد محمد بن علي السنوسي 1787-1857م، وهي طريقة وحركة تجديدية نشأت بعد الضعف والتأخر الذي حل بالمسلمين دينياً واجتماعياً وسياسياً، وعمت مراكزها شمالي إفريقيا والسودان والرأس الأخضر وبعض البلدان الإسلامية. وانتشرت الدعوة السنوسية في أفريقيا الشمالية كلها، وقد امتدت زواياها من مصر إلى مراكش. ووصلت جنوباً إلى الصحراء في السودان والصومال وغرباً إلى الجزائر وكذلك انتشرت الدعوة السنوسية في خارج أفريقيا حيث وصلت إلى أرخبيل الملايو في الشرق الأقصى.

ومما يشهد له به التاريخ، أن السنوسي استطاع بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة واعية، وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية وجهادية، فقد أدخل قبائل إفريقية كثيرة إلى الدعوة الإسلامية بفضل من الله تعالى، وهي قبائل وثنية، ففتحوا فيها المدارس والمراكز الإصلاحية، وأعتقوا العبيد وعلموهم مبادئ الإسلام وأرسلوهم دعاة إلى أقوامهم، واستفادوا من هجرة القبائل العربية القديمة في إفريقيا، ونسقوا معها في الدعوة في الجهاد ضد فرنسا" (الصلابي، 2009، الصفحات 176-180)، وبنوا علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية الإفريقية.

فقد مدحه الشاعر الكبير رفيق المهدوي في قصيدة طويلة منها:

فله من الخدمات للإسلام *** يعلو على تناول الشراح

يكفيه نشر الدين في الآلاف من *** أقصى حدود "الشاد" حتى "الواح" (الصلابي،

2009، الصفحات 212-213).

4. خاتمة:

حاولت هذه الدراسة تسليط الضوء على النفوذ الروحي للطرق الصوفية في المنطقة الإفريقية، وإظهار الصلات والجذور التاريخية المشتركة، وتأثير الميراث الديني الذي يعد ركيزة أساسية في تشييد هذه العلاقة، مع بيان الخدمة الجليلة التي قدمها شيوخ ودعاة هذه الطرق للإسلام والمسلمين، في زرع قيم الخير، وبناء صرح حضاري مهمته الجمع لا التفريق، والبناء لا الهدم، والعطاء لا البخل، والرفق لا العنف، وعنوانهم تنمة مهمة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام في مكارم الأخلاق، وملخص هذا البعد الروحي لهذه الطرق أنها:

- أسهمت مساهمة واضحة في تحطيم معالم الجهل، وعلموا الناس، ونوروا عقولهم، بما يخدم دينهم ودنياهم.
- كان لهم الفضل الكبير في رفع لواء الجهاد، في وجه الصليبيين من الإسبان والفرنسيين، وبرهنوا على وطنيتهم وثباتهم.
- كان لهم الحظ الأوفر في لم شمل المجتمع، والقضاء على كل أشكال العنف والتفرقة.
- كانوا بمثابة الواسطة بين السلطة الحاكمة والشعوب المحكومة في إذكاء نار الفتن والنزاعات بالحكمة والموعظة الحسنة.

5. قائمة المصادر والمراجع :

1. أحمد شيخي. (2009). الطريقة البكاية الكنتية بالصحراء ودورها العلمي و الصوفي، زوايا في المغرب. دار المناهل.
2. سورة الأحزاب، القرآن الكريم .
3. سورة الجن، القرآن الكريم .
4. الدين.لسان العرب .القاهرة: دار المعارف.
5. الشريف الجرجاني . (2004). معجم التعريفات. القاهرة: دار الفضيلة.
6. الطيب الوزاني . (1998). مقومات التفاعل الثقافي والحضاري بين دول غرب إفريقيا والمغرب الأقصى. تطوان: كلية الدعوة الإسلامية.
7. سورة القلم، القرآن الكريم .
8. جلال الدين السيوطي. (2004). الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير. بيروت: دار الكتب العلمية.
9. جمال الدين أبو الفضل ابن منظور. (2016). لسان العرب. القاهرة، القاهرة: دار المعارف.

10. حمدان بن عثمان خوجة. (2006). المرأة. منشورات ANEP.
11. سالم بوتدارة. (2022). التصوف ودوره في ترسيخ العلاقات الروحية بين الجزائر. الحوار المتوسطي، 332-346.
12. سورة التوبة، القرآن الكريم.
13. سورة الشعراء، القرآن الكريم.
14. صالح بن سالم. (2017). علاقة الفقهية بالسياسة الجزائرية العثمانية من خلال الآداب السلطانية. لمجلة التاريخية الجزائرية، العدد 03، ص 82.
15. علي محمد الصلابي. (2009). تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا. بيروت: دار المعرفة.
16. محمد بن جرير الطبري. (2001). جامع البيان عن تأويل أي القرآن. القاهرة، 1: دار هجر.
17. محمد بن عبد الله القرطبي. (2006). الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان. بيروت، 1: مؤسسة الرسالة بيروت.
18. محمد نسيب. (1989). زوايا العلم والقرآن بالجزائر. الجزائر: دار الفكر العربي.
19. مصطفى خليفة حاجي. (2006). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
20. مولاي بلحميسي. (1979). الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.